قرينة السياق فى التركيب القرآنى

أشرنا من قبل إلى أن النمط التركيبى قد يتعدد معناه. ونحب أن نذكر هنا بعض الأسباب التى من أجلها يتعدد معنى النمط فمن ذلك:

١ ـ تعدد معنى الأداة ذات الصدارة فى الجملة كما فى قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ** ﴾ (القارعة ١٠) إذ تصلح «ما» للاستفهام كما تصلح للتعجب.

٢ ـ تعدد معنى الصيغة كما فى قوله تعالى: ﴿ **أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ** ﴾ (النمل ٣٩) إذ يصلح لفظ «آتيك» أن يكون مضارعا ناصباً لمحل الكافَ وأن يكونْ اسم فاعل مضافا إلى الكاف.

٣ ـ تعدد احتمالات العلاقة النحوية كأن يصلح المعطوف أن يعطف على هذا اللفظ أو ذاك وكاحتمال تعلق الظرف أو الجار والمجرور الخ كما فى قوله تعالى: ﴿ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** ﴾ (الرعد ١١) إذ يصلح الجار والمجرور «من أمر الله» أن يكون صفة للمعقبات أو أن يتعلق بالفعل «يحفظونه».

٤ ـ تعدد احتمالات المعنى الوظيفى للكلمة المفردة كما فى قوله: ﴿ **وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا** ﴾ (النور ٣٣) إذ يصلح «الكتاب» أن يكون بمعنى الصحيفة وأن يكون مصدرا بمبنى المكاتبة.

٥ ـ تعدد احتمالات الذكر والحذف كما فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾ (الأنعام ١٠٨) إذ يحتمل التركيب

أن يكون فيه الحذف وألاّ يكون، أى أن المنهى عن سبهم هل هم «الذين يدعون» أو «الذين يدعونهم» أى هل هم المشركون أو الشركاء؟.

٦ ـ تعـدد احتمـالات تمـام الجملة أو افتقارها إلى ما بعدها كما فـى قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ (يونس ٦٥) فهل تمت الجملة عند لفظ (قولهم» أو يكون ما بعد ذلك مقولا للقول. وذلك ما نجده أيضا فى تعانق الوقف فى نحو: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة ٢).

٧ ـ تعدد احتمالات المعنى المعجمى للكلمة المفردة كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ ﴾ (الانفال ٤٨) إذ لا يدرى من مجرد الكلمة ما إذا كان المقصود رؤية بصرية أو ظنية أو رؤيا منامية.

٨ ـ احتمالات الدلالة اللفظية أو الفوقية كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران ١٠٢) فاللفظ نهى عن الموت والمعنى الفوقى أمر بالتمسك بالإسلام حتى الموت.

تلك نماذج للأسباب التى يتعدد من أجلها معنى النمط التركيبى للجملة فيصبح النمط بحاجة إلى قرينة يتبين بها المعنى المراد. ولما كان تعدد المعنى يكشف عن عدم كفاية القرائن النحوية الدالة على الأبواب المقررة كان معنى ذلك أن النمط التركيبى أصبح بحاجة إلى قرينة من خارج الجملة تعرف غالبا باسم «قرينة السياق». وقرينة السياق هذه هى كبرى القرائن النحوية لأنها قد تعتمد على شىء من هذه القرائن النحوية المفردة أو تتجاوزها إلى أمور دلالية من العقل أو من المقام المحيط بالجملة، حتى إن تخطيط الأسس التى يمكن أن تقوم عليها هذه القرينة تبدو على النحو التالى:

فمن القرينة المبنوية (أى المتعلقة بالمبنى اللفظى) ما فى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ﴾ (القلم ٥١) فالدليل على أن «إنْ» مخففة من الثقيلة وأن معنى السياق هو التأكيد وليس الشرط كون الفعل «يكاد»

مرفوعا غير مجزوم، ثم وجود اللام فى خبر إن المخففة وعدم وجود ما يصلح للشرط، وكذلك قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (هود ٨٠) إذ يقوم عدم الجواب قرينة سياقية على أن «لو» للتمنى وليست للشرط. ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿ لَكِنَّا۠ هُوَ اللَّهُ رَبِّي ﴾ (الكهف ٣٨) إذ المعروف أن «هو» التى هى ضمير فصل إنما تتوسط بين اسم لكن وخبرها ولا تلى لكن مقدمة عليهما معافدل ذلك على إرادة التأكيد بقرينة مبنوية إما على أن السياق المقصود «لكن ربى هو الله». أو على أن الضمير للشأن أى «لكنه الله ربى» وانفصل الضمير لزيادة التوكيد.

ومن اعتماد القرينة السياقية على قرينة نحوية علاقية ما نجده فى قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ﴾ (الكهف ٥٨) إذ يأذن التركيب أن يكون خبر المبتدأ إما «الغفور» وإما «ذو الرحمة» على زعم أنّ الغفور صفة للمبتدأ، وإما أن يكون الخبر جملة «لو يؤاخذهم» على زعم ما قبلها صفتين للمبتدأ وتأتى القرينة السياقية من الإضراب عن تعجيل العذاب إلى ضرب موعد مقبل لهم والدليل قوله تعالى: بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا» فدل ذلك على أن الخبر قوله تعالى: «لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب» وقد جاءت القرينة السياقية الدالة على ذلك من علاقة الاضراب المعبّر عنها بحرف الإضراب «بل». ومثل ذلك ما فى قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء ١١٢). فليس الخبر فى هذه الآية هو «الرحمن» وإنما هو «المستعان» لأن المقام مقام استعانة بالله ويدل على ذلك قوله قبل ذلك بقليل: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ (الأنبياء ١٠٩) فالموقف موقف مواجهة بينه وبينهم، فليس المقصود أن يطّمعهم فى الرحمة وإنما المقصود أن يستعين عليهم بالله. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (النحل ٥، ٦) فالجار والمجرور فى

قوله «لكم» الأولى يمتنع تعليقهما بالفعل «خلقها» بسبب علاقة التوازى بين مافى الآيتين بواسطة العطف هكذا:

أ ـ لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون

ب ـ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون

مما يجعل الجار والمجرور خبرا مقدما فى الحالتين وهكذا تكون جملة «والأنعام خلقها» جملة مستقلة، ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ (آل عمران ١٨) فالقرينة السياقية التى تحولَ دون عطف الملائكة على الضمير هى علاقة الملابسة بين الحال المفردة وفعل الشهادة إذ قال «قائما» ولم يقل «قائمين» وكذلك تكرار جملة «لا إله إلا هو» مما يدل على أن المعنى «شهد الله وشهد الملائكة وأولو العلم»، وكذلك: ﴿ **فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِكُم** ﴾ (النساء ١٠٣) فليس المقصود «فاذكروا الله بواسطة القيام» وإنما المقصود اذكروه حالة كونكم «قائمين» بدليل علاقة العطف إذ عطف قوله «وعلى جنوبكم» فدل على أن المقصود ذكر أوضاع أجسامهم عند ذكر الله، والفرق بين القيام وبين القائمين واضح.

ومن اعتماد قرينة السياق على المعجم ما نجده من ضرورة تقدير الحذف فى قوله تعالى: ﴿ **أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُون** ﴾ (يونس ٧٧) أى أتقولون للحق لما جاءكم هذا سحر؟ أسحر هذا؟ وتأتى ضرورة التقدير من أن القول يفتقر إلى مقول ولا تصلح جملة «أسحر هذا» أن تكون هى المقول لأنها استفهام والاستفهام يدل على التردد وعدم الجزم وهم فى كفرهم أبعدما يكونون عن التردد وعدم الجزم. من هنا يقدر المحذوف خبرا مثبتا بحيث ينسجم مع اتهامهم للحق ودعواهم أنه سحر. وأساس كل ذلك أن المعنى المعجمى للفظ القول يقتضى مقولا مقدرا إن لم يكن هذا المقول مذكوراً. ومن ذلك ما يبدو من الفارق بين المعنيين اللذين يفهمان من لفظ «يعدلون» ويختلفان بحسب ما يصحب الفعل من

«الذين كفروا» أو «أمة يهدون بالحق» فى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأنعام ١) أى يجعلون لربهم عديلا وشريكا، وقوله: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأعراف ١٨١) أى يقسطون، فاللفظ المصاحب للفعل كان مرتكزا لدلالة السياق. على أحد المعنيين ولنسبة المعنى الذى دل عليه السياق إلى الفعل. ولعل إدراك المعنى عند الجناس أو التورية فى كثير من الحالات يعتمد على مثل هذه القرينة (قرينة السياق). ومنه أيضا ماناراه فى قوله تعالى: ﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس ٣٥) فلقد أعرب بعضهم «ما»؛ اسما موصولا ولكن إيراد قوله «أفلا يشكرون» تعقيبا على «وما عملته أيديهم» يجعل «ما» نافية لأن أكلهم من ثمر لم تعمله أيديهم يستوجب الشكر أكثر من أكلهم من الذى عملته أيديهم وهكذا يعتمد اعراب «ما» على عنصر معجمى فى السياق فتعتمد قرينة السياق على هذا المعنى المعجمى.

ومن اعتماد قرينة السياق على المناسبة المعجمية (والمقصود هنا ما بين عناصر الكلام من مناسبة أو مفارقة فى المعنى) قوله تعالى: ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ (الأنعام ٩٩) إذ نجد بين أيدينا فى الآية الكريمة «نبات كل شىء» وثمر هذا النبات ولدينا بعد ذلك ضمير متصل مضاف إليه فى «ينعه» يصلح أن يعود من حيث التركيب على النبات كما يصلح أن يعود على الثمر. ولكن استجلاء العلاقة المعجمية بين الألفاظ يكشف لنا عن المناسبة بين اليانع والثمر فيقال «ثمرة يانعة» وعن المفارقة بين اليانع والنبات فلا يقال «نبات يانع» وهكذا تحكم قرينة السياق باعادة الضمير على الثمر دون النبات. ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ ﴾ (آل عمران ١٩٨) إذ إن وضع لفظ الخير بإزاء لفظ الأبرار يحكم بأن «ما» التى فى صدر الجملة موصولة ويمتنع فيها أن تكون نافية وذلك لما بين البر والخير من مناسبة معجمية لا يمكن معها أن يتنافى أحدهما مع الآخر. ومن ذلك أن الآية ١٩٦ من سورة البقرة نصت على جمع العددين فى قوله تعالى: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ

ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ فدل الجمع على أن «اذا» خالصة للظرفية مبرأة من الشرطية فالمعنى «وسبعة عند رجوعكم» وليس المعنى: «إذا كنتم فى الحج فصوموا ثلاثة وأما إذا رجعتم فإن الثلاثة تتحول إلى سبعة» فلما جاءت جملة «تلك عشرة كاملة» نفت معنى الشرط عن «إذا» وجعلتها خالصة للظرفية أى بمعنى «عند» والمعنى «وأضيفوا إلى الثلاثة سبعة عن رجوعكم» ومن ذلك أيضا ﴿ **هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ ص ٣٩) إذ يصلح الجار والمجرور بحكم التركيب أن يتعلق بالعطاء أو بالفعلين «امنُنْ أو امسك» ولكن قوة المناسبة بين العطاء ونفى الحساب وضعف المناسبة بين الامساك وعدم الحساب مكنت قرينة السياق من أو توضح تعلق الجار والمجرور «بغير حساب» بلفظ «عطاؤنا» أضف إلى ذلك أن العطاء رزق والله تعالى يرزق من يشاء بغير حساب ولكنه لا يأمر بالامساك بغير حساب. وهكذا يكون الفعلان معا فى موقع الاعتراض بين أجزاء جملة واحدة هى «هذا عطاؤنا بغير حساب».

نصل عند هذه النقطة إلى قيام قرينة السياق على أساس من المنطق أى من علاقات المعانى بعضها ببعض وليأذن القارىء ببيان ذلك أولا بواسطة بيت من الشعر قبل أن نورد الآيات التى تشهد على ذلك قال الشاعر:

أنا ابن أياة الضيم من آل مالك وإن مالك كانت كرام المعادن

فإذا تأملنا «إنْ» من قوله: «وإنْ مالك كانت...» وجدناها تصلح:

أ ـ نافية فيكون المعنى: ولم تكن مالك كرام المعادن

ب ـ شرطية فيكون المعنى: حتى إن كان مالك كرام المعادن

جـ ـ مخففة من الثقيلة فيكون المعنى: وإنّ مالكا كانت كرام المعادن

والشاعر يفخر ببنوّته لأباة الضيم من آل مالك فلو جعلنا المعنى على النفى لوقع البيت فى التناقص من حيث لا يجتمع الفخر بهم ونفى كرم المعادن عنهم ولو جعلناه على الشرط لأصبح الفخر بالبنوة والتقييد باشتراط الكرم من قبيل تحصيل

الحاصل بواسطة القيد وهو معنى فاسد فالمرء لا يقول: «أنا عريق النسب وإن كنت كريم المعدن». فلم يبق إذاً إلا أن تكون «إنْ» مخففة من الثقيلة والمعنى تأكيد كرم المعدن مما ينسجم به أول البيت مع آخره. ويعلم القارىء أن التناقض وتحصيل الحاصل من العلاقات العقلية بين المعانى. ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ **مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً** ﴾ (هود ٢٤) فعلى الرغم من أن فى الآية أربعة ألفاظ عطف لاحقها على سابقها نرى الفارق العقلى بين الاثنين (الممثلة فى الفريقين ويستويان» وبين الأربعة (الممثلة فى الألفاظ المتعاطفة) يحكم بأن العطف من قبيل عطف الصفات لا عطف الأفراد ويجعل المعنى: مثل الفريقين كالأعمى الأصم والبصير السميع أى أن ثمة شخصين أحدهما أعمى أصم والثانى بصير سميع وهما لا يستويان مثلا وبذلك نحكم بزيادة الواوين اللتين قبل الأصم والسميع أضف إلى ذلك الطباق الذى بين السلب الذى يتمثل فى الأعمى الأصم وبين الإيجاب ممثلا فى السميع البصير ولا شك أن السلب والإيجاب من الأمور العقلية أيضا. وينتهى الأمر بانشاء تقابل ثنائى لا رباعى تقضى به قرينة السياق. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِه** ﴾ (النمل ٤٩) فالملاحظ أن الفعل «تقاسموا» يصلح لأن يكون ماضيا ولأن يكون أمراً وهو على الماضى فى موضع البدل من «قالوا» وعلى الأمر جزء من مقول القول. ولكن العلاقة بين الفعل وما يتلوه من قوله «ثم لنقولن» تدل على جو المكيدة والتربص لأن المعنى: «لنفعلن ثم لننكرن أننا فعلنا» وهذا بالضبط ما يقضى به منطق العقل عند قراءة الآية وهكذا تقضى قرينة السياق بأن «تقاسموا» فعل أمر وليس فعلا ماضيا ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا** ﴾ (الأنعام ٣٤) فقوله «حتى أتاهم نَصرُنَا» غاية تصلح أن تكون للفعل «صبروا» كما تصلح أن تكون للفعل «أوذوا» ولكن تعليق «حتى» بالفعل «أوذوا» لا يحمل فى طيه أى عزاء أو تشجيع

للنبى صلى الله عليه وسلم أما إذا تعلقت «حتى» بالفعل «صبروا» فإن فى ذلك من العزاء والتشجيع ما فيه لأن المعنى عندئذ: ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ** ﴾ (الاحقاف ٣٥) وهكذا تكون «ما» فى «ما كذبوا وأوذوا» مصدرية أى على التكذيب والإيذاء الواقعين عليهم. وهكذا تستند قرينة السياق إلى العلاقات العقلية الدلالية. ومنه ﴿ **قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ** ﴾ (هود ٨٧) فالمنطق يقضى بأن يكون «أن نفعل» مفعولا به للفعل «نترك» وليس للفعل «تأمرك» فالمصدر المؤول معطوف عليه «ما يعبد أباؤنا» والاستفهام انكار لطلب ترك الأمرين كليهما.

والأمر فى الكلام العادى أوضح من كل ذلك فقد تفوتك صلاة الجماعة ثم تدخل المسجد فترى رجلا تتوسم أنه لم يصل فتطمع أن تنضم إليه فى الصلاة طلبا لصلاة الجماعة فتسأله: «صليت»؟ بدون الهمزة ولكن مع نغمة السؤال هنا تكون النغمة هى القرينة الوحيدة للمعنى السياقى ولو لم تكن نغمة الاستفهام لكانت هذه الجملة اثباتا. وقد تسأل شخصا تلقاه بقوله: «أنت فلان»؟ بدون الهمزة ولكن مع نغمة السؤال فيجيبك بالاثبات أو النفى. وهكذا يكون التنغيم مستنداً لقرينة السياق.

وأما الظروف الحسية والنفسية المحيطة بالنص فأمثلتها فى القرآن كثيرة منها ما فى قوله تعالى: ﴿ **وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ (الأعراف ٤٨) فهؤلاء الرجال الذين خاطبهم أصحاب الأعراف عهدت لهم سيما الغنى والكبرياء فى الدنيا وكان ذلك من المدركات الحسية فلما كان نصيبهم فى الآخرة العذاب والهوان سألهم أصحاب الاعراف على سبيل السخرية والتهكم عما إذا كان غناهم وكبرياؤهم قد أغنيا عنهم من الله شيئا وانتفى بقرينة السياق هكذا أن يكون المعنى على النفى أى «لم يغن عنكم جمعكم» بدليل ﴿ **يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ** ﴾ لأن مضمون النفى معلوم سلفا لهؤلاء الرجال فلا حاجة إلى إيضاحه فضل ايضاح ثم بدليل مواصلة السؤال فى الآية التى بعد ذلك:

﴿ أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ (الأعراف ٤٩) ومنه أيضا: ﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ (الأحزاب ٤٨) إذا يصلح التركيب لجعل الأذى منهم له أو منه لهم. ولكن الظروف الحسية التى يعرفها النبى صلى الله عليه وسلم أن الأذى واقع منهم عليه وليس منه عليهم فأصبح المعنى «ولا تجزع لإيذائهم إياك وهذا شبيه بقول العزيز ليوسف» «يوسف أعرض عن هذا» (يوسف٢٩) أى تجاهل ما حدث وليس المقصود لا تعد إلى ذلك مرة أخرى وكذلك: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ (البقرة ٢١٤) إذ يحتمل التركيب أحد معنيين: «متى ننصر الله» و«متى ينصرنا الله» ولكن الذين آمنوا ينصرون الله بحكم إيمانهم ويلقون العنت والعذاب لهذا السبب ويدركون ذلك إدراكاً حسيا ومن ثم يكون المعنى: «متى ينصرنا الله» ويؤيد ذلك ما تلا ذلك من وعد الله لهم بالنصر بقوله: ﴿ أَلاَ إِنْ نَصرْ اللّه قَرِيبٌ ﴾ وأما الظروف النفسية كالحب والكراهية والغضب والرضا والطمع والقناعة فظاهرة فى قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ (النساء ١٢٧) فالتركيب صالح لمعنى «وترغبون فى أن تنكحوهن» وكذلك «وترغبون عن أن تنكحوهن» وقد حذف حرف الجر قصداً ليعم التركيب حالتى الرغبة فيهن والرغبة عنهن لأن اليتيمة ذات المال إما أن تكون جميلة فيرغب وليها فى أن ينكحها استئثارا بمالها وجمالها وإما أن تكون قبيحة فيعضلها رغبة عنها وطمعا فى مالها وهكذا تكون الظروف النفسية متكأ لقرينة السياق دالة على أن حذف حرف الجر مقصود ليشمل التركيب الحالتين كلتيهما حالة الرغبة فيهن وحالة العزوف عنهن مع استبقائهن من أجل مالهن فى الحالتين.

وأما المحيط الاجتماعى حين يكون متكأ لقرينة السياق فمنه قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن

سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (التوبة ٣٤) إذا كان النبى صلى الله عليه وسلم وكان أصحابه معه يعلمون من المحيط الاجتماعى الذى يحيط بهم ما المقصود بهذا الكلام وبالأحبار والرهبان فالسياق بالنسة إليهم ترتكز دلالته على الظروف الاجتماعية ويدل على المعنى بمعونة هذه الظروف أما نحن الآن فإننا بحاجة إلى معرفة سبب نزول الآية حتى تتضح لنا دلالة السياق على هذا الحبر أو ذاك الراهب الذى دل عليه لفظ «كثير». وكذلك الحال فى معرفة الحالفين من قوله تعالى: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ ﴾ (التوبة ٥٦) والذى آذى النبى من قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُن ﴾ (التوبة ٦١) والمعاهد فى قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (التوبة ٧٥) والمعذرون فى قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُم ﴾ (التوبة ٩٠) والمعوقون فى قوله تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (الأحزاب ١٨) والذى نهر والديه فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ (الأحقاف ١٧) كل ذلك كان فى المحيط الاجتماعى الذى يعيش فيه النبى وأصحابه فكان معنى السياق واضحا لهم كل الوضوح على حين نحتاج نحن الآن إلى معرفة أسباب النزول. أى أنهم عرفوا المعنى من حاضرهم ونحن نعرفه الآن من التراث.

وقد ترتكز قرينة السياق على العادات والتقاليد كما فى قوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ ﴾ (المائدة ١٠٣) إذ كان الذين كفروا يفترون على الله الكَذِب ويجعلَونَ هذه الأنواع من الإبل من تقاليد عبادتهم للطاغوت. ومثله: ﴿ وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُن ﴾ (النساء ١٩) وكذلك: ﴿ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (النور ٣٣) وقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ

كَرْهًا ﴾ (النساء ١٩) ومنه أيضا ﴿ وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ (الأنفال ٣٥) وكذلك ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾ (الأحزاب٥) وكذلك: ﴿ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى ﴾ (الأحزاب ٣٣).

كل أولئك إشارات إلى عادات وتقاليد كانت للعرب يفتقر فهم النص إلى معرفتها أى أن هذه المعرفة هى المتكأ الذى لابد منه لقرينة السياق.

وقد تكون هناك إشارات إلى المأثورات والتاريخ أيضا فيفتقرفهم النص إلى معرفة ذلك كما فى قوله تعالى: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِم ﴾ (آل عمران ١١) وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ (النجم ٥٠ـ ٥٤) وكذلك: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ (ق ١٢ ـ ١٤) ومن ذلك أيضا ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَـٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ (البقرة٢٥٩) ومن هذا القبيل كل ما فى القرآن من خبر الأولين وقصص الأنبياء.

وهكذا تمتد قرينة السياق على مساحة واسعة من الركائز تبدأ باللغة من حيث مبانيها الصرفية وعلاقاتها النحوية ومفرداتها المعجمية وتشمل الدلالات بأنواعها من عرفية إلى عقلية إلى طبيعية كما تشتمل على المقام بما فيه من عناصر حسية ونفسية واجتماعية كالعادات والتقاليد ومأثورات التراث وكذلك العناصر الجغرافية والتاريخية مما يجعل قرينة السياق كبرى القرائن بحق لأن الفرق بين الاستدلال بها على المعنى وبين الاستدلال بالقرائن اللفظية النحوية كالبنية والإعراب والربط والرتبة والتضام الخ هو فرق ما بين الاعتداد بحرفية النص والاعتداد بروح النص. وقرينة السياق هى التى يحكم بواسطتها على ما إذا كان المعنى المقصود هو الأصلى أو المجازى وهى

التى تقضى بأن فى الكلام كناية أو تورية أو جناسا الخ وهى التى تدل عند غياب القرينة اللفظية على أن المقصود هذا المعنى دون ذاك إذ يكون كلاهما محتملا، وسنرى فى فصل لاحق كيف حالت قرينة السياق فى القرآن دون تطرق اللبس إلى المعنى عندما يسمح التركيب بورود الاحتمالات المتعددة للمعنى.